قبعة وعمامة وعقال بدوي اسود : اما الشباب فيرتدي اغلبهم السراويل والقمصان المفتوحة ، ورؤوسهم حاسرة . كانت العباءة العربية والبدلة الاوروبية تتحركان جنبا الى جنب ، وكانت عربات الخيل تجرى الى جانب سيارات البويك والكاديلاك ، بينما علا صوت اغنيتين مختلفتين على الاقل تنبعثان من جهازي راديو مرفوعين الى اعلى قوتهما فوق ذلك الضجيج كله » (ص ٢٨ ــ ٢٩) . انها حالة المجتمع العربي وقد دخلته الحضارة الحديثة (الرأسمالية) فمزقته ولم تبنه بعد . فالى اين يسير هذا المجتمع في هذه الرواية ؟ والى اين تسير الشخصيات الروائية المختلفة المتشابهة وأية رواية تنسج ؟

تنقسم شخصيات الرواية الى معسكرين متقابلين ، متداخلين هما .

١ ــ معسكر انصار الحياة القديمة (الاقطاعيين) ودعاة العودة الى الماضي في وجه نمط الحياة الوافد .

٢ ــ معسكر اصحاب العقلية الجديدة الداعين الى حياة جديدة .

ومن خلال العلاقة بين هذين المعسكرين تنسج الرواية احداثها وحواراتها لتبدو بمشكلتها وقضيتها الاساسية (والتي هي متابعة لموضوع « صراخ في ليل طويل ») وكأنها تعالج مشكلة المجتمع العربي وهو يتحرك جاهدا للخروج من نمط حياة وعقلية القرون الوسطى ، ويعبر عن ذلك بهتاف المظاهرات في الرواية : « يسقط الاقطاع ــ تحيا الحرية » .

« **جميل فران** » من المعسكر الثاني : معسكر الداعين للحياة الجديدة ، انه ، لكن بشكل اوضح ، « امين » في الرواية السابقة « صراخ ... » ، وهو يحب تلميذته « سلافة النفوي » ابنة « عماد النفوي » احد ممثلي المعسكر الاول ، وحبه لسلافة معادل رمزي لرغبته في تخليص مجتمعه (بتخليص سلافة) من عقلية القرون الوسطى (اب سلافة) . ان علاقة الحب بين سلافة وجميل هي تكثيف رمزي لمنحى حركة ومضمون الرواية ككل ، هذه الحركة المتجهة الى امام ، الى تغيير الحياة ، وربما من هنا اتى الزمن الروائي سرديا خطيا ، انه في اتجاهه الافقي يأخذ اتجاه ومجرى حركة المجتمع في اتجاهه نحو التغيير ، لكن جميل ليس وحده (مثل امين في الصراخ) : ففي معسكره عدنان وحسين واخرون ، وكذلك أبو سلافة ليس وحده مثل عناية هانم في « صراخ ... » . ان الرواية هنا اكثر شمولا ــ ضمن محدودية شخصيتها وتشابهها ــ واكثر تعقيدا : فمع ابي سلافة يقف احمد الربيضي وتوفيق خلف ، في معسكر الرجعية ، وان كان الأخير شهما يرفض سلافة لانها ترفضه . والخلاف في الرواية بين المعسكرين ليس حول سلافة : هل سيتزوجها توفيق خلف الرجعي كما يريد ابوها ، ام يتزوجها المتنور الجديد جميل فران ، ان الخلاف في الرواية ــ ولا نقول الصراع : فليس هناك صراع في الرواية كما سنبين ــ حول المجتمع بوضعه ومستقبله وبنائه ككل : فالمعسكر الاول يريد استمرار الحياة المتخلفة.ومارغبة أبي سلافة تزويجها لتوفيق خلف الا رمز ودلالة لذلك . وتوفيق خلف لا يرضى بأقل من تحطيم المدينة والعودة الى الصحراء على الرغم من انه خريج جامعة يحلل الحضارة العربية ومشكلة الموت والزمن فيها مثل اي مثقف متغرب . اما في المعسكر المقابل ، المتحرر ، فان عدنان يقول ، مخاطبا الانكليزي برايان ، وموضحا الامور وموقف معسكره كما يلي :